الفصح في دبلين العام 1916

وصف ذات طابع رومنسي

حافظت فرانس على صمتها لبرهة، وهي تنظر إلى كينغزتاون. كانت قبة كنيسة المارين تتكشّف من حجاب الظلام، وهي تلمع بلونها الفضي الرمادي. ثم قالت فجأة:
- لا أفهم لماذا لا تقفز؟
- ماذا؟
- أه، لا أعرف، أريد أن أقول المجتمع. لماذا يساندنا الفقراء؟ لماذا الرجال يريدون القتال في هذه الحرب الرهيبة؟ لماذا لا يقولون كلهم لا، لا، لا؟

- أنا متفق معك يا فرانس. من المذهل أن هؤلاء الناس يتحملون. ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ ماذا يمكننا أن نفعل، أحدنا والآخر؟
- لا يجب أن يكون لدينا انطباع أنه لا يمكننا فعل شيء. يجب التحرك. اليوم، بقرب ستيفان-غرين – كنت في المدينة هذا الصباح – آه لم كان حزينًا. رأيت فتاة، وأم، يجب أن تكون من عمري، ثيابها، ليست بثياب، هي قطع ثياب من كل نوع، كان معها أربعة أطفال، كلهم حفاة؛ كانت تتسوّل، وكان الأولاد يلبسون كما ولو أنهم قرود، وكانوا يحاولون أن يرقصوا فيما هم يبكون في الوقت نفسه!

- كانوا يشعرون بالجوع بالتأكيد.
- نعم، وهذه فضيحة، ونحن متهمون. إن مجتمعًا يتساهل مع أمر كهذا يجب أن نقوم بقلبها.
- لكن، يا عزيزتي فرانس، يجب أن تكوني قد رأيت مثل هذا المشهد مئات المرات، دبلن تختنق بهذه المشاهد.

- نعم، أعلم هذا، وهو مريع! لكن يصدف أنه في هذه الفترة الأخيرة أنني فكرت أكثر بهذه الأمور. لا يجب أن تكون موجودة. لا أفهم لماذا لا يقومون بمهاجمتنا، لماذا لا يقفزون علينا بالحيوانات المفترسة، بدل أن يقوموا بمدّ أياديهم مطالبين ببعض القروش.

اعترف بارني أن امورًا كهذه لا يجب أن تكون موجودة. لكن، بعد كل هذا، ماذا يمكن أن نفعل؟ الأم التي تتسوّل، الأطفال الذين يموتون من الجوع، الرجال على الجبهات، الألمان في قعر المياه في غواصاتهم. العالم كان مجنونًا وتراجيديًا. آه! لو كان كاهنًا.

- بارني، هل تظم أنه هناك مشاكل في إيرلندا؟
- تقصدين معارك؟
- نعم من أجل الحكم وكل هذه الأمور؟
- كلا، بالتأكيد كلا. الصراع على الحكم يأتي وحده بعد الحرب.
- إذن ليس هناك من أي سبب للقتال؟
- لا يوجد أي سبب.
- بكل الأحوال، الأب قال أنه ليس هناك من سلاح. لا يمكنهم أن يتقاتلوا.
- كلا، لا يمكنهم ذلك.
- بارني، ماذا يمكن للصراع على الحكم أن يجلب لهذه المرأة التي تتسول في الشارع؟

- فكر بارني لبرهة.

- لا شيء أبدًا.

- هذا لا يؤدي إلى أي تغيير بالنسبة لأناس طبقتها؟

- باعتقادي، هم يتلذذون بأن يتم استغلالهم من قبل ب. فلناغان بدل أن يتم استغلالهم من قبل ج. سميث

- إذن، بكل الأحوال، الصراع على الحكم لا يستحق أن نتقاتل من أجله

- دقيقة، عن الحرية القومية هي شيء يستحق أن نقاتل من أجله، بقول بارني. (لم يكن لديه أفكارًا واضحة فيما خص هذه المسألة). حين يتم تحرير إيرلندا من إنكلترا، فسيكون من الإسهل إسراء النظام في البيت الداخلي.
- لا أرى لماذا. هناك أناس يقولون أنه يجب أن يكون هناك انتفاضة على الكل: ضد الإنكليز وضد الأسياد الإيرلنديين. هذا ما يقوله جايمس كونوللي، أليس كذلك.
- نعم، لكن هذا حلم، فرانس. إنه مستحيل. وإن حاولوا ذلك فإنهم لن يصلوا إلى إلى خسارة رهيبة. هؤلاء الناس غير قادرين على تسيير شؤون البلاد.
- لكن الناس الذين يتركون هذه الإمرأة تتسوّل وأولادها يموتون من الجوع، هل هم قادرون على تسيير شؤون هذا البلد؟
- حسنًا، لقد رأيت ماذا تودين قوله. لكن النظام والقانون لديهما أهميتهما أيضًا. فالعمال لم يكونوا ليستطيعوا تحسين ظروف حياتهم لولا مساندة النقابات، وليس العكس.
- لكن الحكومة والأسياد يمنعون النقابات.
- عليهم أن يقبلوهم، هم مجبرون على ذلك. ستعملين في السياسة فرانس. قريبًا سنراك في جلباب السياسة.

مقطع من إيريس موردوش، الفصح الدامي، ترجم من الإنكليزية (إيرلندا) على يد آن-ماري سولاك، باريس، غاليمار، "الخيال"، 1989.